

شعرية الفضاء في رواية الأمير "واسيني الأعرج"

أ. روباش إيمان
جامعة البليدة 2

يعتبر الفضاء الروائي أحد المكونات الرئيسية في النص السردي، فمن غير الممكن بل ومن المستحيل تخيل رواية دون فضاء ذلك لأنه لا بد لكل حدث أن يأخذ وجوده في مكان محدد و زمان معين، حيث يلعب الفضاء دورا هاما في البناء الفني للرواية، فوصف محيط الأحداث وصفا دقيقا يساهم بشكل أو بآخر في إعطاء نظرة شاملة عنها، بل قد يكون الفضاء في بعض الأحيان هو الهدف من وجود العمل كله.

وسعيا منا لكشف بعض مظهرات هذا المكون الأساسي، في النص الروائي "كتاب الأمير" لواسيني الأعرج، ارتأينا الانطلاق من مفهومه وأهميته ثم تعرضنا لشعريته انطلاقا من علاقته بالشخصية الروائية، حيث تصور الرواية الحديثة الفضاء المحيط في بعض الأحيان على نحو ما تراه شخصية من الشخص، وهذا ما يؤكد دوره الفعال في تقديم الشخصية والتعريف بها إما على مستوى البناء أو على مستوى الدلالة، كما يعتبر كتاب الأمير (مسالك أبواب الحديد) رواية عن شخصية الأمير عبد القادر الجزائري- لذا تناولنا شعرية الفضاء من خلال علاقته بالشخصية - يمزج فيها الروائي بين التاريخي والتخييلي حيث يستند على المادة التاريخية ويدفع بها إلى قول ما لم يستطع التاريخ قوله، وقد قدم لنا من خلاله الروائي المبدع درسا في حوار الحضارات ومحاوره كبيرة بين المسيحية والإسلام، كما عرض جانباً من حروب القرن التاسع عشر، حروب وجد الأمير فيها نفسه على حافة قرن يتسحب بكل أشواقه وهزائمه ومفاخره.

- مفهوم الفضاء الروائي:

للفضاء دور جلي في بناء النص السردي، هذا ما جعل أحد الباحثين يقر بأنه، حين يفقد العمل الروائي عنصر "المكانية فهو يفقد خصوصيته، وبالتالي أصالته".⁽¹⁾

فالفضاء يوجد في الحدث والشخصية والزمن والوصف والسرد، إنها تجتمع لتشكيل الفضاء، والفضاء الروائي "لا يقتصر على مجموع الأمكنة في الرواية، بل يتسع ليشمل الإيقاع المنظم، للحوادث التي تقع في هذه الأمكنة ولوجهات نظر الشخصيات فيها"⁽²⁾ وهو لا يمثل "في العمق سوى مجموعة من العلاقات الموجودة بين الأماكن والوسط والديكور الذي تجري فيه الأحداث والشخصيات التي يستلزمها الحدث"⁽³⁾ إنه العمود الفقري الذي يربط أجزاء الرواية ببعضها ببعض.

يقول كريفل الفضاء "هو الذي يؤسس المحكي، لأن الحدث في حاجة إلى مكان بقدر حاجته إلى فاعل qui-D وإلى زمن quand O"⁽⁴⁾. حيث تنهض الرواية على مجموعة من العناصر البنائية المشكلة لها، ويعتبر الفضاء أحد هذه العناصر الأساسية، وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن الفضاء "هو المادة الجوهرية للكتابة الروائية، إذ لا يخلو أي عمل من استحضار هذا المكون، الذي يعتبر السند الأساس، والملفوظ الرئيس المشكل لنسيجه إنه إحدى هوياته التي لا يمكن إغفالها أو اختزالها، وإلا عد العمل ناقصا ومبتورا"⁽⁵⁾.

إن فضاء الرواية مثله مثل المكونات السردية الأخرى "لا يوجد إلا من خلال اللغة فهو فضاء لفظي، ويختلف عن الفضاءات الخاصة بالسينما والمسرح؛ أي في كل الأماكن التي تدركها بالبصر أو السمع، إنه فضاء لا يوجد سوى من خلال الكلمات المطبوعة في الكتاب"⁽⁶⁾، ومن ثم تصبح اللغة اللفظية "نسقا يؤسس لفضاء المحكي الأدبي، وعمادا ينظم

مواصفات الفضاء عبر تحقيقات تخيلية تتصل بوصف الأخبار المكانية وقياس تضاريسها وامتداداتها...⁽⁷⁾ لذا تظل اللغة هي المدخل الأساسي لقراءة الفضاء الروائي.

يلجأ العديد من الروائيين إلى تسمية أمكنة الرواية، هذه التسميات تحيل إلى أماكن حقيقية في الواقع، لكن لابد من أن نعرف أن هذه الأمكنة ليست واقعية أو حقيقية "والفضاء في العمل الحكائي أساسه هو اللغة، لذلك فمهما كانت درجة واقعيته، أو حضور مرجعه الخارجي، فإنه يظل تمثيلاً ذهنياً للفضاء".⁽⁸⁾

إن الفضاء لا يكتسب معناه ودلالته إلا في الرواية، ولا وجود له إلا عبر صفحاتها. "إن فضاء الرواية، فضاء خاص، فلا يمكن أن نقول أن الخبر الذي تمدنا به السمة الفضائية إنه خبر واقعي أو حقيقي، بل حسب أنه يكون خبراً صحيحاً...، إن جميع الأخبار التي في رواية من الروايات تعود إليها وهي تقتصر جميعها على كونها دعامة للدلالة التي تحملها هذه الرواية"، لذلك ينبغي أن نميز بين المكان في العالم الخارجي والمكان في العالم الروائي، فالمكان الروائي "لفظي متخيل يحيل إلى نفسه، ولا يتأثر بمحاولة الروائيين تسميته باسم حقيقي، بغية إيهام القارئ بمصادقية الحوادث وواقعية المجتمع الروائي"⁽⁹⁾، فالفضاء الروائي لن يكون إلا "فضاء وهمياً وفضاء إحصائياً"⁽¹⁰⁾. يحيل إلى عالم مختلف عن العالم الخارجي.

ومن خلال ذلك يمكن أن نقول إن الفضاء الروائي فضاء لفظي متخيل يتأسس من اللغة، ولا وجود له إلا في خيال المبدع الذي أنتجه أو المتلقي.

ب- 2- أهميته:

يكتسب الفضاء الروائي أهمية كبيرة لا لأنه أحد عناصرها الفنية، أو لأنه المكان الذي تجري فيه الأحداث، وتتحرك ضمنه الشخصيات فحسب، "بل لأنه يتحول في بعض الأعمال المتميزة، إلى فضاء يحوي كل العناصر الروائية، بما فيها من حوادث وشخصيات وما بينهما من علاقات ويمنحها المناخ الذي تفعل فيه وتعبّر عن وجهة نظرها ويكون هو نفسه المساعد على بناء وتطوير الرواية، والحامل لرؤية البطل والممثل لمنظور المؤلف"،⁽¹¹⁾ وبذلك يغدو الفضاء العنصر الأساسي في تشكيل وبناء الرواية، تتشكل الأمكنة الروائية انطلاقاً من نمو الأحداث وتطورها، تقوم بهذه الأحداث مجموعة من الشخصيات الروائية، أي أن بناء الفضاء الروائي مرتبط أساساً بمدى تطور الأحداث "وهذا الارتباط... بين الفضاء الروائي والحدث هو الذي سيعطي للرواية تماسكها وانسجامها"⁽¹²⁾ مما يعني أن أمكنة الرواية تلعب دوراً هاماً في سيرورة الأحداث وتطورها وتغيير الأمكنة الروائية سيؤدي إلى نقطة تحول حاسمة في الحبكة وبالتالي في تركيب السرد والمنحى الدرامي الذي يتخذه"⁽¹³⁾ ولوجود هذه العلاقات بين الأمكنة الروائية والشخصيات والأحداث وحتى الزمن الروائي، يتحول الفضاء إلى مكون روائي جوهري يحدث قطعة مع مفهومه كديكور".⁽¹⁴⁾

إن المكان في الرواية "خدم الدراما فبمجرد الإشارة إليه يعني أنه جرى فيه أمر ما، ومجرد ذكره يجعلنا ننتظر حدوث واقعة من الوقائع فلا وجود لمكان لا يكون شريكاً في الحدث".⁽¹⁵⁾

يأتي ظهور الشخصيات الروائية مرتبطاً بتقديم أمكنة روائية متعددة، قد تكشف لنا هذه الأمكنة عن "الحالة الشعورية التي تعيشها الشخصية، بل وقد تساهم في التحولات الداخلية التي تطرأ عليها... وقد يكتسب (المكان) سمات الشخصية الحية. ويتم تحديد أدوار الشخصيات الحكائية المكانية بمدى عمق ارتباطها بالمكان"⁽¹⁶⁾، لذا يجب على الروائي عند بنائه لعنصر المكان من أن يكون منسجماً مع ميزاج وطبائع شخصياته، وأن لا يتضمن أية مفارقة وذلك لأنه من اللازم، أن يصبح هناك تأثير متبادل بين الشخصية والمكان الذي تعيش فيه، أو البيئة التي تحيط بها".⁽¹⁷⁾

وقد برز اتجاه يقول "بالتطابق بين الشخصية والفضاء الذي تشغله ويجعل من المكان تعبيرات مجازية عن الشخصية".⁽¹⁸⁾

فأهمية الفضاء كمكون روائي تكمن أساسا في ارتباطه الفعال بمجموع المكونات التي تشكل الرواية، وقد "يساهم المكان في خلق المعنى داخل الرواية ولا يكون دائما تابعا أو سلبيا، بل إنه أحيانا يمكن للروائي أن يحول عنصر المكان إلى أداة للتعبير عن موقف الأبطال من العالم".⁽¹⁹⁾

يكتسب الفضاء دورا مهما من خلال قدرته على التعبير عن مختلف الدلالات والمعاني التي يحيل إليها النص الروائي، من خلال أمانة الرواية المتعددة، كما أن تحليل الفضاء الروائي "هو الذي يسمح بالقبض على الدلالة الشاملة للعمل في كليته".⁽²⁰⁾ فلفضاء الروائي القدرة على خلق المعنى، ولا تقف أهميته على مستوى تشكيل البنية النصية، بل يتجاوز ذلك إلى مستوى الدلالة التي يحددها التماثل اللغوي للنص الروائي، فبإمكان الفضاء الروائي "أن يصبح محمدا أساسيا للمادة الحكائية ولتلاحق الأحداث والحوافز، أي أنه يتحول في النهاية إلى مكون روائي جوهري يحدث القطيعة مع مفهومه كديكور يتحوّل هذا، يصير عنصرا متحكما في الوظيفة الحكائية والرمزية للسرد، وذلك بفضل بنيته الخاصة والعلائق المترتبة عنها"⁽²¹⁾، وبهذا يصبح للفضاء دور هام في نسج أحداث الرواية وبنائها.

– علاقة الفضاء بالشخصية:

يمثل الفضاء مسرحا تتجسد عليه أحداث الرواية، ولا يمكن لهذه الأحداث أن تتجسد إلا بوجود شخصيات عديدة، لا بد لها من أمانة تضمها وتحتويها، وللامانة حسب اختلافها وتعدد دور بارز في رسم الأبعاد الفكرية والنفسية للشخصيات حيث يكتسب الفضاء "أهمية قصوى في تشكيل الفرد وأحاسيسه وانفعالاته منذ مراحل المبكرة، ومن هذا الارتباط يبرز الوعي والإحساس عند الفرد بالانتماء إلى الفضاء المحدد، جسد ذلك الجاحظ في رسالته "الحنين إلى الأوطان" خير تجسيد، حيث يشير إلى أن الإنسان يظل يتصل بوطنه رغم قساوة عيشه وسوء معاشه"⁽²²⁾، كما أن طبيعة المكان ونوعه تؤثر في أخلاق وعادات الشخصيات، حتى إن المكان يصير في بعض الحالات مرآة عاكسة للشخصيات بالإضافة إلى ذلك تسهم الشخصيات هي الأخرى في تشكيل الفضاء وتحريكه، فالأمانة بدون شخصيات كالبيت بدون سكان. فالشخصية هي التي تمنح المكان قيمته وربما وجوده، وقد يتشكل المكان تبعا للحالة النفسية والفكرية لدى الشخصية فكما يؤثر المكان بالشخصية يتأثر بها "فالمكان لا يظهر إلا من خلال وجهة نظر شخصية تعيش فيه، وليس لديه استقلال إزاء الشخص الذي يندرج فيه، وعلى مستوى السرد فإن المنظور الذي تتخذه الشخصية هو الذي يحدد أبعاد الفضاء الروائي ويرسم طبوغرافيته، ويجعله يحقق دلالاته الخاصة وتمسكه الأيديولوجي".⁽²³⁾

حيث ترتبط الشخصيات ارتباطا وثيقا بالفضاء، ذلك "لأنه إذا كان كل فعل يقوم به فاعل يجري في الزمان فإنه كذلك يقع في المكان، بل إن مقولات الفعل والفاعل لا يمكنها أن تتحرك إلا في المكان الذي يستوعبها ويؤطرها"⁽²⁴⁾ فيظهر المكان في الرواية "معبرا عن نفسية الشخصيات ومنسجما مع رؤيتها للكون والحياة وحاملا لبعض الأفكار"⁽²⁵⁾، لذلك يبدو المكان في هذه الحالة "كما لو كان خزان حقيقيا للأفكار والمشاعر والحدوس، حيث تنشأ بين الإنسان والمكان علاقة متبادلة يؤثر فيها كل طرف على الآخر"⁽²⁶⁾.

ويعتبر الديكور منذ بلزاك "خالفا للشخصية يؤثر فيها ويشكلها ليصبح الفضاء منذئذ جزءا من طرائق التمييز التي كان في السابق موضوعا لها"⁽²⁷⁾، فلم يعد المكان مجرد إطار يستوعب الشخصية، وإنما أصبح له قيمة دلالية. فوصف المكان وصف للشخصية التي تحتله فلا يمكن تصور شخصية بدون مكان، لأنه هو من يحدد هويتها وكيانها، وقد ظهر اتجاه يقول "بالتطابق بين الشخصية والفضاء الذي تشغله، وتجعل من المكان تعبيرات مجازية عن الشخصية؛ إن بيت الإنسان امتداد له، فإذا وصفت البيت فقد وصفت الإنسان"⁽²⁸⁾، حيث تلعب الشخصيات دورا هاما في تشكيل الفضاء الروائي ولكن

لا بد أن نعرف أن لكل منهما وظيفته البنائية، فالشخصيات هي الفاعل الأساسي في سيرورة الأحداث وتطورها وبظهورها يقدم المكان، أما المكان فإنه ثابت لا ينتقل ولا ينمو إلا إذا حصل فيه شيء، أي إنه "هو الذي يقتضي وجود الأحداث والشخصيات وليس العكس".⁽²⁹⁾

وسيعمل الروائيون على أن يكون اختيارهم للمكان "منسجما مع مزاج وطبائع الشخصيات وأن لا يتضمن أية مفارقة، ذلك لأنه من اللازم أن يصبح هناك تأثير متبادل بين الشخصية والمكان الذي تعيش فيه ويرتبط الفضاء عند كتاب الرواية الجديدة بالشخصية والسردي ارتباطا شديدا، وهذا ما جعل "الرواية الحديثة تصور الفضاء المحيط في معظم الأحيان على نحو ما تراه شخصية من الشخص، كما يتجلى ذلك في آثار أدبية مختلفة"⁽³⁰⁾، حيث يخضع الفضاء الروائي إلى وجهة نظر الشخصية أو السارد وأحوالهما النفسية، وهذا ما يؤكد "دوره الفعال في تقديمهما وتعريفهما، وبذلك أصبحت علاقة الفضاء بالشخصية والسارد - تمنح النص الروائي قيمة قصوى إما على مستوى البناء أو مستوى الدلالة"⁽³¹⁾ وهذا التلازم بين الشخصية والفضاء المؤدي إلى تبادل الدلالات بينهما، لا يقتضي أن يخضع الفضاء لهيمنة الشخصية خضوعا تاما، وإنما تؤثر الشخصية على الفضاء سلبا أو إيجابا كما يؤثر الفضاء هو الآخر على الشخصية سلبا أو إيجابا.

وقد يمتد تأثير الشخصية الروائية في الفضاء لدرجة إبداع أماكن غير مألوفة، تعد نقيضا للمكان الإنساني المألوف، كأن ينجح الروائي بأماكنه الجديدة إلى الغرابة نتيجة لما تعيشه شخصياته من تمزق وضياح.

وقد استطاعت الرواية الجديدة أن تجسد العلاقة بين الفضاء والشخصية من خلال التعبير عليها بالصلات التالية:⁽³²⁾

- 1 - التفاعل الإيجابي (التجاوب مع المكان): وفيه تؤثر الشخصية في المكان ويؤثر فيها.
- 2 - التفاعل السلبي (التنافر): أن يكون المكان غريبا (المنفى)، والشخصية ذات طموح وملامح مدنية أخرى تحاول إعلان انسلاخها عن المكان.

- 3 - علاقة الحياد: وفيها لا تتأثر الشخصية بالمكان ولا يؤثر فيها، فكل منهما منفصل عن الآخر.

حيث تتخذ علاقة الشخصية بالفضاء التي تتموقع فيه عدة أشكال، فنكون العلاقة بينهما إما "علاقة اتصال وانسجام، وقد تكون العلاقة بينهما علاقة تنافر وتوتر، ربما تصل حد القطيعة، ومن الممكن أن تكون هذه العلاقة سكونية يسودها اللاتفاعل،... مع الإشارة إلى أن هذه النظرة نظرة نسبية..."⁽³³⁾.

وفي واقع الأمر فالفضاء يقتضي وجود الشخصية، والشخصية لا تحقق وجودها إلا في فضاء معين، فالفضاء والشخصية مثلا متلازمان، إلا أن هذا التلازم لا يعني مطلقا وجود تطابق بينهما.

وسأركز في علاقة الفضاء بالشخصية على شخصية الأمير، نموذج أرى أنه يجسد علاقة التأثير والتأثر بين الفضاء والشخصية :

وسأحاول التمثيل للعلاقة بينه وبين الفضاء من خلال العنصرين التاليين:

- 1 - الصراع من أجل الوطن والهوية وسأتناول فيه علاقة الأمير بأرضه الجزائر ومدى تعلقه بها من خلال الدفاع عنها باستماتة رغم كل الظروف.

- 2 - غربة الذات (الشخصية) وحداية الوطن والمنفى: وسأنتقل فيه إلى حالة الغربة والفقدان، التي يعاني منها الأمير بعد نفيه إلى فرنسا وعيشه هناك على أمل العودة إلى أرضه الأولى يوما ما.

1- الصراع من أجل الوطن والهوية:

تجسد هذه الشخصية الثائرة ، شخصية البطل المناضل الذي تصدى للأعنف حملات التدمير والهلاك، التي كانت تستهدف منجزاته العسكرية والمدنية، ومحاولاته المتكررة للتوحيد شتات القبائل المتناحرة.

رغم ما عرف به الأمير عبد القادر من مقاومة وصمد للاحتلال إلا أن الروائي ركز على طبيعة العلاقة بين شخصية الأمير والفضاء من خلال إبراز مشاعر الحسرة والألم التي كان يعاني منها لحظة سقوط الوطن فريسة في يد المستعمر، ولعل مرد ذلك إعتقاد الروائي أن وصفه للمشاعر الألم التي كان يعانيها الأمير تجسد صورة واضحة عن تضحياته المريرة ضد المستعمر.

أثرت صورة تدمير "مليانه" على شخصية الأمير خاصة بعد أن أصدر القائد العسكري بيجو -بعد التحاقه بالجزائر- أمراً بحرق المدينة في إطار تطبيق سياسة الأرض المحروقة "حرق كل المحاصيل وقلع الأشجار وتدمير كل شيء واقف والاستيلاء على رؤوس الاغنام والابقار وسط صرخات النساء".³⁴ حيث ظهرت مشاعر الحزن والإنكسار والخيبة واضحة على نفسية الأمير ومع ذلك واصل كفاحه وتضحياته.

كما زحف جيشه على "تكدمت" العاصمة الرمزية للأمير بعد أسبوع من حرق مدينة مليانة، وقد أثر توالي هذه الضربات الموجعة على الأمير، وهذا ما تجسده مشاعر الإنكسار والخيبة التي اعترضته لضياح هذا الإرث الحضاري الكبير، الذي أسس له منذ سنوات، لقد أحزنه تدمير "تكدمت" وأثر على مشاعره، فلم يبق في المدينة شيء حيث دمرت بيوتها ومصانعها ومساجدها وحتى المكتبة التي حوت كثير كتبه التراثية دمرت.

عمد المستعمر الفرنسي إلى تحطيم عناصر القوة لدى الأمير: الأسلحة، المصانع، المساجد، المكتبة، ولم يكتف بذلك بل سعى لتصفية الإنسان باعتباره نواة النضال الوطني من أجل السيادة، فشن إبادة جماعية في المدن لتدميرها، أيضا من خلال حرقه للمداشر والقرى كتلك الجريمة التي أرتكبها "بليسي": "بحرقه في جبال الظهره لقبيلة بكاملها ببشرها وغنمها وزرعها".³⁵

لقد كان الأمير-كما يصف السارد- يحلم بأن يجعل من هذه المدينة لا "مدينة حرب ولكن كذلك دار علم وثقافة، الوقت لم يسعفه والحرب حرمته من أن ينشر العلم في هذه المدينة العريقة التي تمتد ابان الدولة الرستمية سنة 755م، وأخلت لما أستولى عليها الفاطميون سنة 909م بأشجارها العملاقة البلوط، الزينون، والتربة الصلبة، وجبالها القوية التي منعت عنها هجمات كثيرة".³⁶

صور الخراب التي جسدها المستعمر تدين إدانة صارخة، كما تكشف على انهزامية واستسلام بعض الأطراف وخضوعها للسياسة المستعمر الظالمة، وهذا ما كشف عنه الأمير عند تقييمه للوضع بمرارة وألم: "تنقلاتي لا تسمح لي بأي شيء في هذه الدنيا إلا نصرة الحق وتحرير الأرض من الاستعمار وطغيان القبائل الحديثة..."³⁷

يتواصل ألم الأمير الداخلي اتجاه أرضه المسلوبة، خاصة بعد: "أن يتأكد من خضوع وخنوع أطراف عديدة في الحرب اتجاه المستعمر لذلك يقول "إن تربية شعب تعود على الغزو والنهب والتفكير في الحصول على مال جاره ليس أمرا هينا"³⁸

نلاحظ من خلال ذلك أن الأمير لم يكن يحارب غطرسة الأخر فقط والذي يريد سلب الأرض بل كان يحارب أيضا حالة الخنوع والتشردم التي كانت تعاني منها قبائل الصحراء هذه الحالة التي جعلت من الريف الجزائري مسرحاً مهماً لا يذكر إلا عند الحاجة لطاقاته وامكانياته حيث جعله الانقسام فريسة سهلة في يد المستعمر ، لذلك سعى الأمير جاهداً إلى

توحيد صفوف قبائل الصحراء لآيمانه العميق لقدرتها على تحقيق الانتصار والحرية للبلاد، ومع ذلك " كان يدرك جيداً أن إخراج الناس من دائرة القبيلة، من منطقها ولغتها يحتاج إلى زمن".³⁹

لقد كان صراع الأمير من أجل الوطن والهوية ((الفضاء)) مصحوب بمرارة وألم كبيرين خاصة بعد انهزامه، لكن لم يتوان في يوم ما عن هدفه، لقد مثلت شخصية الأمير صورة المناضل المتعلق والمرتبطة بفضائه الخاص الذي يريد المحافظة عليه ويعتبره حق يجب الدفاع عنه.

والملاحظ أن صفحات الرواية تصور لنا العلاقة الوثيقة بين شخصية الأمير والفضاء ((الوطن))، وتأثيرها سلباً على مشاعره وقوته، ومن خلال ذلك نستطيع القول أن هناك علاقة متبادلة بين الفضاء والشخصية التي تعيش فيه .

2- غربلة الذات وجدلية الوطن والمنفى:

يتصل مفهوم المنفى في اللغة العربية بمعاني الإبعاد، التغريب والذهاب وتؤكد هذه المعاني حالة الابتعاد والانقطاع التي تعيشها الذات المغتربة.

ولأن المنفى مكانٌ ليس غريباً فحسب " وإنما هو مكان يتعذر فيه ممارسة الانتماء، ولأنه طارئ ومخرب ومقفر إلى العمق... وهو مكان يضم دوماً بالنسبة للمنفي قوة طاردة تجعله يعيش حالة انفصام معه، ويخفف في مد علاقة التواصل مع المكان الجديد، مما ينطوي على ذات ممزقة، لا سبيل إلى إعادة تشكيلها في كينونة منسجمة مع نفسها أو مع العالم".⁽⁴⁰⁾

وفي النص الروائي صورة واضحة للمنفي وارتحال الذات الروائية من خلال إخضاعها لعملية استقصاء لذاتها بغية تشكيل دلالات هذا الفضاء، والملاحظ أن انسحاب الشخصية من الوطن -الجزائر- لم يكن اختيارياً بل كان هروباً من واقع متأزم وموت محقق.

يحضر المنفى في الرواية مثلاً في مدينة باريس والتي نفى إليها الأمير عبد القادر بعد استسلامه أمام الجيش الفرنسي، وفي هذه الحالة يمثل منفى جبرياً ومكاناً معادياً للشخصية: " لا أرى فرنسا إلا سجنًا لي ولمن معي فلا فرق إذا عندي بين هذا القصر وباريس".⁴¹

رغم ما توصف به مدينة باريس من أنها مدينة الجمال والحرية، إلا أنها تمثل مكاناً غريباً ومعادياً يتعذر على الأمير العيش فيه ، وما زاد من حدة الاحساس لديه تماطل السلطات الفرنسية في تنفيذ الوعد الذي قطعه للأمير، وهذا ما تأسف له قائلاً: " يحزنني أن يتحول بلد الحرية إلى سجن كبير للأحرار".⁴²

لا يكتف الأمير بنقل احساسه بالبعد والإغتراب، وإنما ينقل إلينا إحساس من كان يرافقه من الأقارب والأهل "الأمر كل يوم يزداد سوءاً... صهري، زوجته... تفكر في العودة إلى معسكر، بنتي زهرة بدأت تصاب بالخجل بسبب الخوف والرعب الذي لحق بها في معتقل سانت مرغريت".⁴³

يفشل الأمير وعائلته في ربط جذور التواصل مع الفضاء -المنفى الجديد-، فتسود حياته مشاعر الغربة والوحشة، والاحساس بفقد الوطن الجزائر(معسكر)، فالمنفى مكان قاس وموحش ليس لأنه كذلك في الأصل، ولكن لأنه مكان غريب وغير مألوف بالنسبة لشخص الأمير وعائلته.

يحاول الأمير أن يخفف من حالة الغربة والفقدان التي يعيشها رفقة عائلته فيلجأ الى الذكريات مسترجعاً من خلالها صورة المكان المفقود التي أراد حمايته من غطرسة الآخر فيتذكر بعض أحداث مواجهاته قائلاً: " كنت أقاتل ليس فقط الفرنسيين، ولكنني كنت أقاتل حالة العمى التي كانت تصيب بعض حلفائي فيظنون أنهم ملاك الحقيقة فيكفرون ويقتلون".⁴⁴

إن صورة المنفى كما يصورها الأمير ليست انفصال وإبعاد عن الوطن فحسب وإنما هي كذلك إحساس بالإهانة والتضاؤل والاذلال، كما تلتقي هذه الرؤية مع نظرة "مونسنيور ديوش" الذي يرى أن الإنسان عندما يغادر تربته كأن جلده يتزع وهو حي".⁴⁵

إلا أن حالة الفقدان والغربة والابتعاد التي عانى منها الأمير طيلة خمسة سنوات منتقلا فيها من سجن إلى آخر تزول وتتغير بعد أن ينال الأمير حريته فتبدوا له مدينة باريس جميلة ببنائيتها الحديثة ومعالمها التاريخية ونظامها الخاص "يرمي ببصره بعيداً بين البنايات الباريسية الضخمة والسيارات التي كانت تملأ الشوارع النظيفة بحركتها وضجيجها والناس وهم يسيرون بانتظام في الحدائق المحيطة بالمدينة، العالم كله كان يتغير بسرعة كبيرة..."⁴⁶

تصور لنا العديد من صفحات الرواية مشاعر الغربة والألم والوحشة التي عانى منها الأمير بعد نفيه إلى فرنسا وسجنه بها لخمس سنوات، مما يدل على التأثير الكبير للفضاء في شخصية الأمير .
قائمة المراجع والهوامش:

- 1 - غاستون باشلار: جماليات المكان، تر: غالب هالسا، المؤسسات الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط5، 2000، ص5-6.
- 2 - سمر روجي الفيصل: الرواية العربية، البناء الرؤيا، مقاربات نقدية ن منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، دط، 2003، ص71.
- 3 - حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي (الفضاء-الزمن-الشخصية)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2009، ص31.
- 4 - هنري متران وآخرون: الفضاء الروائي، تر: عبد الرحيم زحل، إفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، د ط، 2002، ص137.
- 5 - نصيرة زوزو: إشكالية الفضاء والمكان في الخطاب النقدي المعاصر، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة بسكرة، الجزائر، العدد 06، 2010، ص03.
- 6 - حسن بحراوي: المرجع السابق، ص27.
- 7 - محمد الزموري: شعرية الفضاء في القصة القصيرة، مطبعة انفو، برانت، فاس، المغرب، دط، 2010، ص33.
- 8 - سعيد يقطين: قال الراوي، البنيات الحكائية في السيرة الشعرية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1997، ص240.
- 9 - سمر روجي الفيصل: الرواية العربية، البناء والرؤيا، ص282.
- 10 - حسن نجمي: شعرية الفضاء، التخيل والهوية في الرواية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2000، ص47.
- 11 - احمد زياد محبك: متعة الرواية، دراسة نقدية متنوعة، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص29.
- 12 - حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي، ص30.
- 13 - المرجع نفسه ص32.
- 14 - المرجع نفسه ص33.
- 15 - محمد الزموري: شعرية الفضاء في القصة القصيرة، مطبعة انفو، برانت، فاس، المغرب، دط، 2010، ص10.
- 16 - وجدان توفيق الخشاب: وتحدث الوقائع في المكان، قراءة في المكان لقصص عالم الدباغ، القصيرة مجلة دراسات موصلية، يصدرها مركز دراسات الموصل، العدد الحادي والعشرون، 2008، ص3.
- 17 - المرجع نفسه، ص03.
- 18 - حسن بحراوي: المرجع السابق، ص31.
- 19 - حميد حميداني: بنية النص السرد من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي، الدار البيضاء، ط3، 2000، ص70.

- 20 - حسن بحراوي: المرجع السابق، ص33.
- 21 - إبراهيم عباس: تقنيات البنية السردية في الرواية المغاربية، دراسة في بنية الشكل، طاهر وطار - عبد الله العروي، محمد لعروسي المطري، دط، دت، الجزائر، ص34.
- 22 - سعيد يقطين: المرجع السابق، ص 241.
- 23 - أحمد زياد محبك: المرجع السابق، ص 32.
- 24 - سعيد يقطين: المرجع السابق، ص 240، 241.
- 25 - أحمد زياد محبك: المرجع السابق، ص13.
- 26 - حسن بحراوي: المرجع السابق، ص 31.
- 27 - كلوندستين وآخرون: الفضاء الروائي، ص 34.
- 28 - حسن بحراوي: المرجع السابق، ص 31.
- 29 - حسن بحراوي: المرجع السابق، ص 31.
- 30 - حورية الظل: الفضاء في الرواية العربية الجديدة، مخلوقات الأشواق الطائرة، لادوارد خراط، نموذجاً، دار نينوى، دمشق، سوريا، ط، 2011، ص 275.
- 31 - المرجع نفسه، ص276.
- 32 - جوادي هنية: صورة المكان ودلالاته في روايات واسيني الأعرج، إشراف: صالح مفقودة، جامعة بسكرة، 2012-2013، بحث مقدم لنيل شهادة دكتوراه العلوم، ص 372.
- 33 - ينظر: جوادي هنية: المرجع نفسه، ص273.
- 34 - واسيني الأعرج: كتاب الأمير، مسالك أبواب الحديد، منشورات الفضاء الحر، الجزائر، 2009، ص 269.
- 35 - واسي الأعرج: كتاب الأمير، ص 334.
- 36 - المصدر نفسه، ص172.
- 37 - المصدر نفسه، ص 242.
- 38 - المصدر نفسه، ص 101.
- 39 - المصدر نفسه، ص 99.
- 40 - جوادي هنية: صورة المكان ودلالاته في روايات واسيني الأعرج، ص411.
- 41 - المصدر نفسه، ص 465..
- 42 - المصدر نفسه، ص 132.
- 43 - المصدر نفسه، ص 466.
- 44 - المصدر نفسه، ص 128.
- 45 - المصدر نفسه، ص 499.
- 46 - المصدر نفسه، ص 460.